سؤال الهوية الأدبية الأندلسية

د. سناء زكريا المجايدة
أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، جامعة زايد، الإمارات العربية المتحدة
z10093@zu.ac.ae

The Question of Andalusian Literary Identity

Dr. Sana Zakaria Almajaidah
Assistant Professor , The Department of Arabic , Zayed University , UAE

الملخص:-

يتميز سؤال الهوية الأندلسية بكثير من التعقيد والالتباس بالنظر إلى مجموعة من الإشكالات التي يطرحها. ويستقي هذا الموضوع أهميته من طرافة البحث في تاريخ الوجود العربي بالأندلس الغنّاء؛ لكتابة ما سكت عنه أو ما هُمّش من أهمية البحث في التاريخ الأندلسي وآدابه المعبرة عن نسغ الهوية الأندلسية ارتباطا بفعل الترحيل بعد الاستقرار والتوطين، هذا الفعل الذي أرسى دعائم نزوع إنساني نحو تشكيل هوية ملتبسة تسعى إلى تحرير سؤال الأنا ارتباطا بالنحن/ الوعي الجمعي، وبمفارقة مع الآخر الذي يشكل شرطا وجوديا للذات؛ وارتباطا كذلك بمبدأ "لنقصان بعد التمام" الذي ألح عليه الشاعر الأندلسي أبو البقاء الرندي.

الكلمات المفتاحية: الهوية الأدبية، الأندلس.

Abstract:-

The question of Andalusian identity is characterized by a lot of complication and ambiguity, given the set of problems it present. This topic obtain its importance from the novelty of research in the history of Arab existence in rich Andalusia; where it leads to write what is silent about him or what is marginalized from the importance of research in Andalusian history and its etiquette expressing the secretion of Andalusian identity in connection with the act of deportation after settlement, this act which established the foundations of a human tendency towards forming an ambiguous identity that obtains to liberate the question of the ego related to we / collective consciousness, and paradoxically with the other, which constitutes an existential condition for oneself, furthermore It was also linked to the principle of (diminishing after completeness) which the Andalusian poet Abu Al-Bqaa' Al-Rondi insisted on.

Key words: Literary identity, Andalusia.

التمهيد:

شكلت الأندلس مجالا خصبا للتواصل والتعايش والتفكير والمدارَسة سواء إبان وجود الإسلام بها أو بعد طرد المسلمين منها، وقد أثر الفضاء الأندلسي بتلك السمات في الشخصية الأندلسية ليجعلها مكتوية بنار البحث عن الذات، كما أثر في الدارسين والمستلهمين لنموذجها على اختلاف جنسياتهم وتوجهاتهم الفكرية؛ فكانت الأندلس مدار بحوث مختلفة التخصصات ومجالَ سرود متشعبة الخيالات؛ مما جعلها حقا نموذجا فريدا ترك بصمته على لوحة الحضارة الإنسانية، لِما حملته من دلالات رمزية بقيت عالقة بالذاكرة والقلب، ولَما كانت كذلك، فهي عابرة للأزمنة وللأمكنة، كلّ واحد يَبكيها من هذين المنطلقين (الزمني والمكاني) بوصفها ليلاه.

تسعى هذه الدراسة إلى تقديم ملاحظات أولية عن الهوية الأدبية الأندلسية المنفلتة، وإلى تسليط الضوء على جانب من حضارة الأندلس، مع استعراض المكونات العرقية والدينية والثقافية التي انصهرت في المجتمع الأندلسي. وترسيخ محددات الهوية الأندلسية المتشكلة بوعي التعدد، وهي المحدد الديني (الإسلام، اليهودية، المسيحية) والمحدد العِرْقي (العرب، الأمازيغ، الصقالبة، الموريسكيون...) والمحدد المعرفي الذي يعني ما أُنتِج من معرفة دالة على خصوصية فكرية ذات مشارب متنوعة (فلسفية، علمية، أدبية...) أنتجها تاريخ ممتد زمنيا ومليء بالمد والجزر وبالتفوق والانهزام، كما أبدعتها جغرافيا معقدة بين أقصى جنوب أوروبا وأقصى شمال إفريقيا وفي أقصى محيطٍ بعيد عن الخليج العربي.

كما تحاول هذه الدراسة الوقوف على مكون من مكونات الشخصية والهوية الأندلسية، وهي الهوية الأدبية، لتقف عند أهم مظاهرها وأشكالها وعلاقتها بالهويات الأدبية المجاورة أو العابرة المشرقية والمغربية والأوربية. كما يستقصي أهم النصوص الأندلسية التي ناقشت سؤال الهوية الأدبية الأندلسية.

كان يحركنا، على امتداد الدراسة، سؤال إشكالي: هل يمكن الحديث عن هوية أدبية أندلسية خالصة أم أن الذات الأدبية الأندلسية انصهرت وذابت في الوعي الأدبي الجمعي العربي والإسباني؟

وقد اهتدينا بنهج استقرائي لملاحقة الوعي بالهوية الأدبية في مظانها الأندلسية حيث تثوي، فاستعرضنا النصوص المعبرة عن هذا الوعي، وأردفنا العرض بالمناقشة والتحليل. وانتهينا في هذه الدراسة إلى تقديم خلاصة عامة، مع طرح الآفاق التي يطرحها البحث في الموضوع أمامنا.

ماهية الهوية الأدبية الأندلسية:

يتميز سؤال الهوية الأدبية الأندلسية بكثير من التعقيد والالتباس بالنظر إلى مجموعة من الإشكالات، من بينها: تسمية الوجود العربي الإسلامي بالأندلس، وظروفه التاريخية، بالإضافة إلى تعقد البنية السوسيولوجية للمجتمع الأندلسي المتعدد الأعراق والديانات والثقافات... واختلاف وجهة النظر والرؤية الحالية إلى هذا الماضي الأندلسي وفق تصور إسلامي أو مسيحي، مغربي أو مشرقي أو إسباني، ولكل تصور أطروحاته النظرية التي يتداخل فيها النفسي والموضوعي والتاريخي، والمشترك في هذه الرؤية هو الفقد والحنين.

لذلك نحس، ونحن نبحث في هذا الموضوع الشائك، مسؤولية كبرى؛ تاريخية ومعرفية، وصعوبة في التناول بشكل موضوعي بعيدا عن الانطباع والذاتية.

كما يستقي هذا الموضوع أهميته من خلال البحث في التاريخ الأندلسي وآدابه المعبرة عن نسغ الهوية الأندلسية ارتباطا بفعل الترحيل بعد الاستقرار والتوطين، هذا الفعل الذي أرسى دعائم نزوع إنساني نحو تشكيل هوية ملتبسة تسعى إلى تحرير سؤال الأنا (الوعي الفردي) ارتباطا بالنحن (الوعي الجمعي) وبمفارقة مع الآخر الذي يشكل شرطا وجوديا للذات؛ وارتباطا كذلك بمبدأ حتمية السقوط والانهيار التي عبّرت عنها نونية أبي البقاء الرندي الذي لم يبق له من رندة غير الخراب وكان خير معبر عن جدلية "النقصان بعد التمام".. وتلك سنة الدول[1].

قبل النقصان كان التمام "وكان الفتح وانكشف الغطاء..." وبقي البحر من وراء الفاتحين، وسارت ببطولة طارق وموسى الركبان، واستتبّ أمر الإسلام بالأندلس، ومن هنا ينشأ سؤال الفاتح أمشرقيّ هو أم مغربي؟ أبربري أم عربي؟ أيُسنَد لآمِر أم لمنفّذ؟

ومهما كان الجواب، فإن حضارة بدأت بالتشكل من الجوانب كلها، على أنها كانت في

مستهلها مشدودة للمشرق مشدوهة به لا تبغي مرجعا سواه، وقد شدها من بين ما شدها المنجَز الأدبي الذي يهمنا الآن، فكان الشعر المشرقي هو النموذج الأمثل الذي يجب احتذاؤه، وكان الانتصار إلى المقولة المأثورة "مطرب الحي لا يُطرب" كفيلا بعدم الالتفات إلى أي شاعر أندلسي مهما علا شأنه.

ويسير على الدرب نفسه ما ذهب إليه الصّاحب ابن عباد لما اطّلع على أشعار ابن عبد ربه وعلى أشعار الأندلسيين (وهم في شعرهم متأثرون بالشعر المشرقي) فتلفّظ بعبارة "هذه بضاعتنا رُدّت إلينا".

ناهيك عن أن كثيرا من المصادر الأندلسية أرّخت للماضي الشعري والنثري المشرقي، وأهملت الواقع الشعري والنثري الأندلسي إنْ انبهارا أو اعتدادا بالسبق التاريخي للمشرق وحبكة ورصانة أدبه، وفي ذلك إحساس حتى التخمة بجغرافية الهامش في مقابل المركز، فقد كان المشرق إبان القرنين الأولين من وجود الإسلام بالأندلس بالنسبة للأندلسيين مركز الدنيا والمرجع الذي يجب الاعتداد به والركون إليه، والحامي للهوية الأندلسية، والنموذج الذي يجب أن يُحتذى، والملاذ الذي يجب أن يُحتمى به ويُحتفى [٢].

وكان التحول بعد استتباب الأمر للأندلسيين، وتقوية الأنا والإحساس بشرعية الاختلاف والاستقلالية، فبدأ كثير من الأندلسيين يتمردون على مقولة المرجعية المشرقية، وأصبح مطرب الحي يُطرب أيما إطراب، وستحمل أجزاء الدراسة ما يثبت هذا الأمر ويدلل عليه.

يلخص كل ما قلناه أنفا ما قاله ابنُ بسام في مقدمة الذخيرة وهو يسرد محاسن أهل الجزيرة: "إلا أن أهل هذا الأفق أبَوا إلا متابعة أهل الشرق؛ يرجعون إلى أخباره المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب؛ لجثوا على هذا صنما وتلوا ذلك كتابا، وأخبارهم الباهرة وأشعارهم السائرة مرمى القصية ومناخ الرذية، لا يعمر بها جنان ولا خلد ولا يصرف فيها لسان ولا خلد.

فغاظني منهم ذلك وأنفت مما هنالك، وأخذت نفسي بجمع ما وجدتُ من حسنات دهري، وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري؛ غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بُدوره أهلة وتصبح بحاره ثمادا مضمحلة مع كثرة أدبائه ووفور علمائه [٣]".

لقد اكتفى ابن بسام في ذخيرته بجمع ما تراكم من شعر ونثر في الأندلس، موليا وجهه القبلة الأندلسية التي يرضاها، متخليا عن المحفوظ الشعري المشرقي الذي تداوله المتعلمون كثيرا وآثروه على المحفوظ الشعري المحلي. لقد آن الأوان لتغليب الذات على الآخر، وإن كان هذا الآخر آخرا مشاركا الذات إسلامَها وعربيتها. في هذا السياق يقول ابن بسام متمردا: "وقد مجت الأسماع: يا دار مية بالعلياء فالسند، وملت الطباع: لخولة أطلال ببرقة ثهمد، ومحت: قفا نبك في يد المتعلمين، ورجعت على ابن حجر بلائمة المتكلفين، فأما أمن أم أوفى، فعلى آثار من ذهب العفا، أما آن أن يصم صداها، ويسأم مداها... وكم من نكتة أغفلتها الخطباء، ورب متردم غادرته الشعراء، والإحسان غير محصور، وليس الفضل على زمن بمقصور (٤)".

يتأكد لنا مع ابن بسام أن الشعراء الأندلسيين قد غادروا فعلا المتردم، وعادوا يبكون غير ليلى الأخيلية، يبكون المتظرفات الحسناوات مثل: وَجْد واعتماد وصُبْح ومُهْجة ونزهون.. الأندلسيات الجميلات ذوات المحتد الأوربي والصقلبيات الفاتنات وهن يرتعن في الحدائق الأندلسية الغنّاء، بعيدا عن مثيلاتهن في صحراء المشرق...

ونحن إذ نلحّ على الاستشهاد بهذه النصوص؛ فإننا نؤكد أن ابن بسام كان أول من كرّس بذخيرته الوعي بالخصوصية الأدبية الأندلسية، مدافعا عن مطرب الحي وعن قدرة الهوية الأدبية الأندلسية على أن تأخذ مكانتها بين الآداب العالمية؛ بفضل خصوصيتها الطبيعية والنفسية والأدبية.

سمات الهوية الأدبية الأندلسية:

إننا هنا بصدد الحديث عن التميز، وعن رغبة أندلسية في الاستقلال عن سلطة المركز الروحي والشعري، في هذا السياق يبدو أن "الناقد الأندلسي كثيرا ما تحركه نزعة الانتماء الحضاري فتشده في النص مظاهر التماثل أكثر مما تشده مظاهر التميز. بل إن من التميز ما يعرض عنه هذا الناقد إذا كان خروجا عن السنة الثقافية (٥)".

ولاشك في أن نزعة الانتماء الحضاري هذه هي المحركة للناقد الأدبي ابن بسام وهو يُقبل على تأليف مصنفاته التي أرّخ بها للأدب الأندلسي شعره ونثره.

ويقف أديب أندلسي آخر موقف الرافض للشعر العربي المشرقي، لنجده ناقما على الذين يبجلون شعراء الجاهلية وغيرهم، وقد أخذ موقفه جانبا من السخرية، فثار على ما شاع من شهرة أبيات امرئ القيس التي يُضرب بها المثل، فقال: "فقد وجدناهم يشهدون بتفضيلها، ويهتدون بضليلها، ويُعجبون بأنه وقف واستوقف وبكى واستبكى، وفعل وصنع من هذيانات تحكى، وأشياء لا تمر ببال النوكى."(٦) ننقل هذا النص، بالرغم مما قد يعترينا من إحساس بالمبالغة في هذا الكلام، ومجانبته الصواب؛ فالأكيد أن للشعر الجاهلي سطوته الفنية على النفسية العربية وغيرها على امتداد العصور؛ سعيُنا هو تحديد موقف النقاد الأندلسيين تجاه بعض الشعر الجاهلي؛ إذ يبدو أن أبيات امرئ القيس قد شربها الرواة حتى مجوها، ولبسها أهل العصر حتى أنهجوها. وقد تجاوز صاحب الاستشهاد السابق حدود اللياقة في وصف شهرة قصائد امرئ القيس الذي له مكانة متميزة في المشهد الشعري العربي.

إزاء ذلك كلّه، فالأندلسيون قد استعاضوا عن هذه الأبيات الشعرية القيسية والمشرقية المتداولة بخرائد العصر وبقصائد قالوا إنها ستبقى خالدة إلى يوم الحشر.

وفي هذا السياق ينبري الأندلسيون لنوع شعري متميز وهو الموشح(٧) الذي شاع كثير من القيل والقال حول أصله وفصله؛ فمن قائل إنه مشرقي المحتد، ومن ذاكر إن متأخري الأندلس من استحدثه، ودلّ هذا الاستحداث على تفردٍ أندلسي وبراعة شعرية، ويؤكد ذلك ابن خلدون عندما يقول: "وأما أهل الأندلس فلما كثُر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه، وبلغ التنميق في الغاية، استحدث المتأخرون منهم فنا سموه بالموشح ينظمونه أسماطا أسماطا وأغصانا أغصانا، واستظرفه الناس جملة، الخاصة والكافة، لسهولة تناوله وقُرب طريقه... وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معافر الفريري، وأخذ ذلك عنه عبد الله بن عبد ربه صاحب العقد الفريد(٨)".

إننا لنلمس من النصوص المستَشهد بها سابقا إصرارا على وجود هوية أدبية أندلسية مستقلة بذاتها، راغبة في التفرد وناسجة للعقد الفريد، تصنع الموشح وبه دواوين شعرية تتوشح وبجميل أوزانه تصدح.

لقد تميزت الهوية الأندلسية بطابع الكونية والتعدد؛ بالنظر كما قلنا إلى صيغة الخصوصية التي انطبعت بها، وكذا باعتبار الموقع الجغرافي المتميز، الذي ترك آثارا ظاهرة في

الهوية الأدبية الأندلسية؛ إذ تجمّلت الأشعار بطبيعة الأندلس الغناء، بعيدا عن الرمال والصحراء، كما احتفت الدواوين الشعرية بالخضرة والجمال؛ فكان شعر الطبيعة مؤشرا على هوية أدبية جديدة صنعها فضاء جميل خلاب قصيّ عن المشرق. عنه يقول ابن خفاجة(٩):

يا أهل أندلس لله دركم	ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا في دياركم	وهذه كنتُ لو خيرت أختار

لقد عمّر الأندلسيون ثمانية قرون كاملة غير منقوصة وهم في مجاورة المسيحيين وفي تعايش مع اليهود وفي تواصل مع المشرق والمغرب العربيين، لقد كانت الأندلس بين ماء ونار، ماء البحر الأبيض المتوسط ونار حروب الاسترداد، وفي هذا الخضم تفتّقت حضارة أندلسية أشّرت على هوية متفردة، قوامها التعايش الديني، وميسمها التسامح العرقي، وملمحها التنوع والتفرد في الآن نفسه.

والأجدر من ذلك، أنها بعد اضمحلالها خلقت أفقا ممتدا للحوار، وشكلت نموذجا يُحتذى ويناقَش ويُفكَّر فيه، وقد تجلى ذلك في التصورات التي تكونت لدى الباحثين الإسبان والعرب، فقد كانت مدار أبحاثهم، وخلقت أفقا مشتركا للتواصل بين الثقافتين الإسبانية-الأوربية والعربية، سواء من خلال ندوات أو مراكز البحث، وفي ذلك وعيٌ بالامتداد والتفرد، وتأكيدُ إسهام الأندلس بنصيب متميز في الحضارة الإنسانية في شتى مناحي المعرفة.

محطات تشَكُّل الهوية الأدبية الأندلسية

عوداً على بدء انكشافِ الغطاء نقول إنه قد ابتدأ كل شيء مع الفتح الإسلامي للجزيرة الإيبيرية. ونحن في هذا السياق نقف على مجموعة من الكتابات التاريخية التي رصدت هذا الفتح في حينه إن بشكل واقعي تقريري أو بوعي يمتزج فيه الأسطوري مع التاريخي (نشير هنا إلى تاريخ ابن حبيب السلمي، وكتب فتوح البلدان) وتقف الجغرافيا كمحدد أساس في تشكل الهوية الأندلسية، فقد شكل موقع الأندلس البعيد جدا عن الرقعة الإسلامية، وعن المركز/ الجزيرة العربية أشبه بالأزمة النفسية، حيث التماس المباشر مع العدو الشمالي المسيحي "الطاغية" المتربص، ولا يحد جنوب البلاد الأندلسية غير بحر الروم بما يحمله من

رهبة وتهديد بالحتف. لقد ولّد هذا الموقع إحساسا بالانعزال، وامتد هذا الإحساس بامتداد الوجود العربي الإسلامي بالأندلس، وتشكّل من خلال المحطات الآتية:

١- البدايات: وفيها كان الانشداد إلى المركز المشرقي، وانعكس ذلك على كل مناحي التفكير الأندلسي في الأدب وغيره. وقد شكلت المعارضة والسير على المنوال أهم مياسم هذه المرحلة. وقد تكشفت كتابات عن الحنين إلى نجْد أبرزت حسا إنسانيا رفيعا، معبرا عن هوية مندمجة مع المشرق لا توجد في غياب عنها.

وفي هذا السياق، ظل المشرقي حاضرا في الوعي الجمعي الأندلسي، حتى أن كثيرا من المدن الأندلسية سُميت قياسا إلى نظيراتها المشرقية و"هذا ابن غالب الأندلسي حين يريد أن يمدح أهل بلده بالأندلس يقارنهم بأهل بغداد، فيقول: بغداديون في نباهتهم وذكائهم وحسن نظرهم وجودة قرائحهم ولطافة أذهانهم وحدّة أفكارهم، ونفوذ خواطرهم ورقة أخلاقهم وظرفهم ونظافتهم."[١٠] وعيٌ بادله بعضُ المشارقة الأندلسيينَ، فهذا السرخسي يقول وقد نقل عنه المقري: "إني وإن كنت خراساني الطينة، لكني شامي المدينة، وإن كانت العمومة من المشرق فإن الخؤولة من المغرب[١١]".

٢- إثبات الذات: وهي لحظة تأكدت فيها أحقية الوجود المستقل عن المشرق، هذا الاستقلال السياسي صاحبَه استقلال معرفي، أبان عن هوية أندلسية مبدعة منفعلة مع محيطها وقادرة على إنتاج دلالاتها ورموزها الدينية والاجتماعية والثقافية، وفوق كل ذلك قادرة على الانتقال من لحظة التأثر إلى لحظات التأثير... وبين الأندلس والمشرق كان هناك التقاء بين صحراء الجزيرة العربية وطبيعة الجزيرة الإيبيرية، لقاء بين الجفاف والخصب، بين البداوة والحضارة، بين القديم والحاضر، بين الهنا والهناك، بين الآذان والأجراس، نشأت عنه شخصية أندلسية متفتحة ذات روح مرحة.

٣-النهايات: تشكلت مع سقوط بعض المدن، ومرت باشتداد شوكة حروب الاسترداد، وانتهت بالطرد من الفردوس المفقود (نستحضر هنا قصائد الرثاء كغرض مميز مؤرخ لهذه المرحلة).

لقد تشكلت علاقة الأدب الأندلسي بالمشرقي على امتداد كل تلك المراحل التاريخية والمعرفية التي قطعتها العقلية الأندلسية، كما تفاعل النص الأدبي الأندلسي وتحاوَر وتواصل

مع نظيره المشرقي بشتى الأشكال، معارَضة أو استيحاءً ونسجاً على المنوال، [١٢] إعراضا ورفضا أو قبولا واحتفاءً؛ فكان "النص الأدبي الأندلسي، شأنه شأن كل نص أدبي، فريدا من نوعه. ويكمن تفرده في مجموعة من الاختيارات يقوم عليها تأليف النص بالمقابلة مع النص المشرقي. منها:

- ما اختاره المبدع من عناصر التماثل مع النص المشرقي.
- وما غيّر فيه لفظا أو معنى وتصرّف فيه.
- وما أضافه من الرصيد المشترك وكان غائبا في النص المشرقي.
- ما أهمله من النص المشرقي وسكت عنه.
- ما تسرب إلى النص الأندلسي من عناصر محيطه الطبيعي والحضاري [١٣]".

مكونات الهوية الأدبية الأندلسية

كان لكل مرحلة إكراهاتها ورجالها وسياقها الثقافي المميز. على أن ما يعنينا نحن، كمتأدبة، هو الوقوف على مكامن الهوية وتأصيلها في الأدب الأندلسي، ونود الوقوف على تمظهراتها من خلال التشكلات الأدبية الآتية:

١- الشعر الأندلسي في مراحل تكونه، وما حمله من تحولات نفسية واجتماعية أذكت الوعي بالذات في علاقاتها المختلفة، فكان الشاعر الأندلسي يتغنى بأندلسيته وينتشي بها ويفضلها عن غيرها ولو كانت الصين، وعن ذلك يقول ابن حزم[١٤]:

ويـــا جـــوهر الصـــين ســـحقا فقـــد غنيـــتُ بياقوتـــة الأنـــدلس

على أنه وجب في هذا السياق أن نشير إلى تفرد الأندلسيين في كتابة شعر يجعل الطبيعة موضوعا، والجمال مرْكبا، والورود ميسما ومبسما، وقد استوعبت كتب أندلسية بعض ما تمّ تأليفه في هذا المجال ومنها كتاب البديع في وصف الربيع لإسماعيل الحميري الذي لا يلتفت إلا إلى الشعر الأندلسي، يقول في هذا السياق: "وأما أشعار أهل المشرق فقد كثر الوقوف عليها، والنظر إليها حتى ما تميل نحوها النفوس ولا يروقها منها العلِق النفيس مع أني أستغني عنها ولا أحوج إليها بما أذكره للأندلسيين من النثر المبتدَع، والنظم المخترع،

وأكثر ذلك لأهل عصري إذ لم تغب نوادرهم عن ذكري (...) لكن أهل المشرق على تأليفهم لأشعارهم وتثقيفهم لأخبارهم مذ تكلمت العرب بكلامها، وشغلت بنثرها وبنظامها إلى هلم جرا، لا يجدون لأنفسهم من التشبيهات في هذه الموصوفات ما وجدته لأهل بلدي على كثرة ما سقط منها عن يدي"(١٥).

لقد كانت الطبيعة الأندلسية حقا دالة على تفرد الجغرافيا الأندلسية في مقابل مثيلتها المشرقية، إذ ظهرت قصائد في المائيات والروضيات والزهريات؛ تحتفي بكل مظاهر الطبيعة الأندلسية، كما حضرت الطبيعة في جل الأغراض الشعرية من وصف وغزل ومدح؛ وساعدت هذه الطبيعة نفسُها على تبلور وعي بالأنا المترعة جمالا وبهاء، وعن ذلك التباهي قيل:

يا أهل الأندلس لله درّكم ... ماء وظل وأنهار وأشجار

ويُلخص كل ذلك المِقَّري بالقول إن "محاسن الأندلس لا تستوفى بعبارة، ومجاري فضلها لا يشق غباره، وأنى تجارى وهي الحائزة قصب السبق في أقطار الغرب والشرق(١٦)".

٢- كتب التراجم التي حاولت التأريخ لرجال الأندلس في جنون، وكأنها كانت تعي حتمية الجلاء عن الجزيرة، فقد سعى الأندلسيون إلى الترجمة لأكبر عدد من علمائهم، وتخليد أسمائهم ومكتوبهم بين صفحات الكتب، وهنا يجدر بنا استحضار الكتب الآتية: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام، والمغرب في حلى الأندلس والمغرب لابن سعيد، والإحاطة بأخبار غرناطة لابن الخطيب، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري، وغيرها كثير من المصنفات... إضافة إلى أن الأندلسيين الرواة والمصنفين، سواء أكانوا منصفين لأندلسيتهم أو متحيزين، كانوا يخصصون بابا مستقلا للغرباء الطارئين على الأندلس.. وهذه نقطة جديرة بالتأمل والانتباه(١٧).

إن هذا الإلحاح على تكديس التراجم والإحاطة بكل الأخبار لَهو مؤشر على الإحساس بهوية أندلسية متشكلة وبـ(أنا) منتِجة وفي حاجة إلى تأريخ.

٣-الرحلة الأندلسية التي شكلت، أكثر من غيرها من أصناف الكتابة، إحساسا

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

بالذات ووعيا بجوهرها، وذلك باعتبار أن لقاء الآخر من أهم مميزات الرحلة، فالرحالة عندما يلتقي الآخر يتعرف عليه وهو في الآن نفسه يكرس وعيه بذاته، وهو عندما يصف البلدان الأخرى يقارنها بأندلسه؛ ليؤكد قربها أو بُعدها عن غيرها من البلدان؛ هدفه من كل ذلك أن يرسم هويته بمختلف تجلياتها (الأدبية والفلسفية...) وكتب الرحلة الأندلسية شاهدة على هذا الوعي، لنذكر على سبيل المثال ابنَ جبير والبلوي وابن الخطيب والقلصادي... وكلهم عبَروا البلدان وعبّروا في رحلاتهم عن نسغ الهوية الأندلسية، وأشكال تفاعلها مع الآخر وموقفها منه.

لقد ارتحلت الذات الأندلسية داخل الأندلس لسحق الآخر الأندلسي المتمرد، ورحلت في اتجاه الشمال رغبة في هدنة وإبرام صلح مع الآخر المسيحي وهنا ظهرت الرحلة السفارية، ورحلت إلى المغرب للقاء الآخر غير الأندلسي رغبة في الاكتشاف أو طلبا للمساعدة، كما يمت وجهها شطر المشرق لأداء شعائر الحج، وقد شكلت الرحلات الحجية تمظهرا جليا للعلاقة المتوهجة بين مركز الإسلام المشرقي وهامشه الأندلسي. وقد ذكر أحد الباحثين أن "الغاية الأساسية من توجه هؤلاء العلماء إلى المراكز المقدسة في المشرق هي سماع الحديث النبوي الشريف والأخذ عن الشيوخ المشهورين في هذه المراكز."[١٨] والحقيقة أن الأمر أكثر من ذلك؛ إذ هو سعي نحو تحصين الذات والوفاء لماضيها واعتدادها بنسغ هويتها، مع الأخذ بعين الاعتبار المؤثرات الزمانية والنفسية في تكوين الهوية الأندلسية.

عبر كل أنواع الرحلة السفارية والحجية والعلمية والاستكشافية تبلورت هوية أندلسية مهادِنة ومتشبثة بخصوصيتها، ومنفتحة على الآخر بشكل محدود.

٤- شعر رثاء المدن والممالك الأندلسية الذي شكل حلقة من حلقات الوعي بالفقد، إذ نسجل هنا أن الشعراء الأندلسيين راكموا تجربة شعرية مهمة جدا، استطاعت أن تعبر عن واقع الحال المتردي، وأن تصف في صفاء انفعالات الذات الإنسانية المكتوية بلهيب فقدان الأوطان والديار. كما ضمنت لها تلقيا مشهودا ارتقى بها إلى مصاف الشعر الإنساني الخالد.. ولا أدلّ على ذلك من قصيدة ابن شهيد في رثاء قرطبة، وقصيدة حازم القرطاجني في رثاء الأندلس، وقصيدة أبي البقاء الرندي التي طارت شهرتها بالآفاق... يقول حازم القرطاجني مستصرخا باكيا مستمدا من

الطبيعة صورا حزينة[١٩]:

فالنـــهر الأبـــيض يبكـــي شـــجوه بكـــل دمـــع مســـتفيض مـــا رقـــا
وقـــد بكـــى النـــهر الكـــبير صـــنوه إذ لم يطـــق يـــروي صـــدى هـــام زقـــا

إضافة إلى قصيدة ابن شهيد في رثاء قرطبة [٢٠]، ومطلعها:

مـــا في الطُّلُـــولِ مِـــن الأَحِبَّـــةِ مُخْبِـــرُ فَـــمَن الَّـــذِي عـــن حالِهـــا نَسْتَخْبِـــرُ
لا تَـــسأَلنَّ سِـــوى الفـــراقِ فإِنَّـــهُ يُنْبِيـــكَ عنـــهم أَنْجـــدُوا أَم أَغْـــوَرُوا

لقد كان غرض الرثاء في الشعر الأندلسي متأصلا متطورا بتطور هذا الصقع البعيد عن مركز الإسلام. وكلما سقطت مدينة أندلسية في أيدي النصارى ارتفعت الحناجر الشعرية داعية إلى رفع الخطب عنها[٢١].

٥- التجربة الأدبية الموريسكية[٢٢] التي أشرت على بروز هوية من نوع خاص وبلغة خاصة هي اللغة الألخميادية[٢٣]، لقد كانت التجربة الموريسكية فريدة زاهية، إذ إن الموريسكي وقد سيطر المسيحيون على كل الجزيرة الإيبيرية أصبح هناك غريبا يعيش الأنا والآخر في الآن نفسه؛ فهو أندلسي مسلم، ترعرع بتلك البلاد وأصبح غريبا عنها، ووجد نفسه بين مرارة أن يصبح مسيحيا أو يرحل عن البلاد من غير رجعة. "والظاهرة الواضحة في الأدب الموريسكي هو أن كتّاب الألخميادو كانوا يفكرون ويكتبون بالروح العربية، وإن كان تعبيرهم عن ذلك يجري بالقشتالية، وأنهم كانوا يتأثرون في الأسلوب بلهجات مقاطعاتهم المختلفة، أكثر من تأثرهم بقواعد اللغة."[٢٤] ومثال ذلك الأبيات المترجمة لشاعر مجهول يبكي فيها بلدته (الحامة) القريبة من غرناطة عند سقوطها في يد النصارى[٢٥]:

آه على بلدي الحامة

الرجال والنساء والأطفال

كلهم يبكون هذه الخسارة العظمى

كما بكت كل السيدات غرناطة

آه على بلدي الحامة

لا ترى من نوافذ بيوتها في أزقتها

إلا مأتما كبيرا

وتطالعنا في الثقافة الموريسكية عدد من الرحلات المرتبطة بمأساة تهجير الموريسكيين من بلادهم، ويمكننا في هذا السياق ذكر ثلاثة نماذج، هي: رحلة أحمد بن قاسم الحجري المعروف بأفوقاي (ت. ١٦٤٠) وعنوانها رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب التي سرد من خلالها رحلته إلى أوربا [٢٦]، ورحلة المدجن الحاج عبد الله بن الصباح (من موريسكيي ق. م ١٥) وعنوانها أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار وهي رحلة حجازية [٢٧]، وأخيرا، رحلة الحاج بوي مونثون (من موريسكيي ق.م ١٦) وعنوانها أناشيد الحاج بوي مونثون. [٢٨]

ولكل رحلة سياقها وظروف كتابتها، غير أنها تشترك في تعبيرها عن الوعي الموريسكي بالأندلس من حيث هي فضاء انتُزع قسرا من المسلمين، كما تشترك هذه الرحلات وأخرى من حيث لغتها؛ إذ إنها تزاوج بين العامية والعربية.

وإن من الجدير بالذكر أن كثيرا من الموريسكيين ما زالوا يحتفظون بمفاتيح منازلهم، وبأسفار أدبية لأجدادهم مكتوبة بلغة ألخميادية أو بعربية بسيطة جدا تداخلها مفردات إسبانية، كما يتغنون بماضيهم، ولسان حالهم ينادي: يا منازل لك منا في القلوب منازل... يقصدون إشبيلية ورندة وقرطبة وغرناطة... وهذا أمر كان له أثر في تبلور الهوية الأندلسية وامتدادها عبر الزمان. إن هذه التجربة وحدها في حاجة إلى بحث مستقل يقف عند أبرز تمظهراتها.

الخاتمة:

خلاصة القول إن الهوية الأندلسية، ارتباطا بالجغرافيا، قد تجاذبتها مجموعة من الترابطات مع المشرق والغرب الإسلامي ودول شمال الجزيرة، في علاقة كما قلنا معقدة تطبعها كثير من التقابلات بين ما هو هامش ومركز، بدوي ومتحضر، وعليه فقد "تعدد الواحد، ولكن تعدده لم يحطم نواته، وظلت الثقافة متبدية متحضرة سواء أكانت شامية أم عراقية أم إفريقية أم أندلسية، وكل من هذه الأقطار والمراكز الثقافية يتعامل مع هذه الثقافة

في تعدد روافدها تعاملا مخصوصا، وتتحدد هويته وخصوصياته المميزة بحسب حظه من نواة وعناصر المتعدد، من نمط التبدي وأنماط التحضر[٢٩]".

إن الهوية الأندلسية لَتشكل بحق نموذجا فريدا من الهويات؛ بالنظر إلى كل ما قلناه سابقا. وتبقى هوية النصوص الأدبية الأندلسية خير معبّر عن هذه الفرادة، وخير معبَر للنفاذ إلى وجه من أوجه الحضارة الإسلامية بل الإنسانية المشرقة؛ إذ انطبعت بميسم الطبيعة الأندلسية وبنكبة سقوط المدن ورثائها، وبجاذبية الموشح وتوشيحه للدواوين الشعرية، وبـ"حجازية" الرحلة المضمخة بمشاعر الانمحاء في الوعي الجمعي الإسلامي، وفي شعر الغربة والحنين الذي ارتسم في أذهاننا بجاذبيته على مر السنين...

لم تكن الهوية الأدبية الأندلسية في عمومها نقية خالصة، لكنها مع ذلك سجلت تفردا من حيث الأسلوب الفني والموضوعات المطروقة، إضافة إلى تأرجح تحاورها مع الأدب المشرقي بين الخنوع والرفض. وهي على كلٍّ امتداد له دون ذوبان فيه.

هوامش البحث

(١) إشارة إلى قصيدة أبي البقاء الرندي التي طارت بها الركبان:

لكل شيء إذا ما تمّ نقصان	فلا يغرّ بطيب العيش إنسان
هي الأيام كما شاهدتها دول	من سره زمن ساءته أزمان

(٢) من الأمثلة الواضحة هنا كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي المتوفى سنة ٣٢٨ هـ، وقد قال الصاحب ابن عباد حينما اطّلع على هذا الكتاب: "هذه بضاعتنا ردت إلينا." كناية عن احتفاء هذا الكتاب بالثقافة المشرقية وإهماله لثقافته الأندلسية.

(٣) الشنتريني، أبو الحسن علي بن بسام (ابن بسام): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، ليبيا- تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٨١، ج. ١، ص ١٣.

(٤) المصدر نفسه، ج. ١، ص ١٤.

(٥) ريدان، سليم: ظاهرة التماثل والتميز في الأدب الأندلسي، تونس، منشورات كلية الآداب بمنوبة، ٢٠٠١، ج. ١، ص ١٢.

(٦) المخزومي، أبو المطرف أحمد بن عبد الله ابن عميرة: رسائل ابن عميرة الديوانية، تحقيق محمد بن عمر، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٣، ص ٦٩.

(٧) يضيق المجال عن مناقشة صاحب قصب السبق إلى الموشح أمشرقي أم أندلسي، لكن الراجح لدي أن الأندلسيين أبدعوا في هذا الفن، وألبسوه حللا سندسية أندلسية، ليشكل ميسما للهوية الأندلسية، ولا زالت هذه الموشحات تعزَف موسيقيا بالمغرب والجزائر وتونس.

(٨) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: تاريخ ابن خلدون، تحقيق خليل شحادة، بيروت، دار الفكر ١٩٨٨، ج. ١، ص ٨١٧.

(٩) الهواري، إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة: ديوان ابن خفاجة، تحقيق عمر فاروق الطباع، بيروت، دار القلم للنشر والطباعة والتوزيع، ١٩٩٤، ص ١١٣.

(١٠) ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد: رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، تحقيق إحسان عباس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات، ١٩٨١، ج. ٢، ص ١٨٧.

(١١) التلمساني، أحمد بن محمد المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨، ج. ٣، ص ١٠١.

(١٢) نود هنا الإشارة إلى كتاب سليم ريدان: ظاهرة التماثل والتميز في الأدب الأندلسي، الذي استفاض في رصد أوجه التعالق بين الأدبين الأندلسي- المغربي والمشرقي.

(١٣) ريدان، سليم: ظاهرة التماثل والتميز في الأدب الأندلسي، تونس، منشورات كلية الآداب بمنوبة، ٢٠٠١، ج. ١، ص ١٤.

(١٤) ابن حزم علي بن أحمد بن سعيد: طوق الحمامة في الألفة والألاف، تحقيق إحسان عباس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط. ٢، ١٩٨٧، ص ١٨٢

(١٥) الحميري، إسماعيل بن محمد بن عامر: البديع في وصف الربيع، تحقيق عبد الله عسيلان، جدة، دار المدني، ١٩٨٧، ص ٤.

(١٦) التلمساني، أحمد بن محمد المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج. ١، ص ١٢٥.

(١٧) انظر على سبيل المثال لا الحصر كتاب تحفة القادم لابن الأبار الذي قصر قسما من كتابه على الغرباء الطارئين على الجزيرة، وكذا كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة لأبي عبد الله محمد المراكشي الذي أفرد الجزء الثامن للغرباء، يتضمن ١١٥ ترجمة لهم وللنساء.

(١٨) طه، عبد الواحد ذنون: الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلامي والمشرق، بيروت، دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٥، ص ١٥.

(١٩) القرطاجني، حازم بن محمد: قصائد ومقطعات أبي الحسن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٧٢، ص ٦٧.

(٢٠) عبد الملك، أحمد بن أبي مروان (ابن شهيد): ديوان ابن شهيد، تحقيق يعقوب زكي، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٠٠، ص ١٠٩.

(٢١) يُنظَر: المجايدة، سناء: رثاء المكان في الشعر العباسي والأندلسي، دبي، دار الأجواد، ٢٠١٦.

(٢٢) "الموريسكيون: لفظ أطلق على المسلمين الذين بقوا في مملكة غرناطة بخاصة وظلوا متمسكين بدينهم وعاداتهم على الرغم من الاضطهاد الرهيب الذي تعرضوا له." ينظر: حمادة، محمد ماهر: دراسة وَثقيَّة للتاريخ الإسلامي ومصادره من عهد بني أمية حتى الفتح العثماني لسورية ومصر، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٨، ص ٥٢٧.

(٢٣) هي عبارة عن خليط من لغات، كالقشتالية والعربية والرومانية، مكتوبة بأحرف عربية، واستعملت كمتنفس للثقافة الموريسكية للتعبير عن أفكار الموريسكيين وآدابهم. ينظر: عنان، محمد عبد الله: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف الترجمة والنشر، ط. ٣، ١٩٦٦، ص ٤٩٤- ٤٩٦.

(٢٤) المصدر السابق نفسه، ص ٤٩٨.

(٢٥) الكتاني، علي المنتصر: انبعاث الإسلام في الأندلس، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥، ص ٢١٧.

(٢٦) الحجري، أحمد بن قاسم (أفوقاي): رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب، تحقيق محمد رزوق، أبوظبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤.

(٢٧) الصباح، عبد الله: أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار، تحقيق محمد بنشريفة، الرباط، دار أبي رقراق.

(٢٨) مونثون، بوي: أناشيد الحاج بوي مونثون، تحقيق عبد الله اجبيلو، السعودية، دار الفيصل الثقافية، ٢٠٠٤.

(٢٩) ريدان، سليم: ظاهرة التماثل والتميز في الأدب الأندلسي، ج. ١، ص ٤٥.

قائمة المصادر والمراجع

١- ابن حزم علي بن أحمد بن سعيد: طوق الحمامة في الألفة والألاف، تحقيق إحسان عباس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط. ٢، ١٩٨٧.

٢- ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد: رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، تحقيق إحسان عباس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات، ١٩٨١.

٣- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: تاريخ ابن خلدون، تحقيق خليل شحادة، بيروت، دار الفكر ١٩٨٨.

٤- التلمساني، أحمد بن محمد المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨.

٥- الحجري، أحمد بن قاسم (أفوقاي): رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب، تحقيق محمد رزوق، أبوظبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤.

٦- حمادة، محمد ماهر: دراسة وَثقيَّة للتاريخ الإسلامي ومصادره من عهد بني أمية حتى الفتح العثماني لسورية ومصر، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٨.

٧- الحميري، إسماعيل بن محمد بن عامر: البديع في وصف الربيع، تحقيق عبد الله عسيلان، جدة، دار المدني، ١٩٨٧.
٨- ريدان، سليم: ظاهرة التماثل والتميز في الأدب الأندلسي، تونس، منشورات كلية الآداب بمنوبة، ٢٠٠١.
٩- الشنتريني، أبو الحسن علي بن بسام (ابن بسام): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، ليبيا- تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٨١.
١٠- الصباح، عبد الله: أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار، تحقيق محمد بنشريفة، الرباط، دار أبي رقراق.
١١- طه، عبد الواحد ذنون: الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلامي والمشرق، بيروت، دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٥.
١٢- عبد الملك، أحمد بن أبي مروان (ابن شهيد): ديوان ابن شهيد، تحقيق يعقوب زكي، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٠٠.
١٣- عنان، محمد عبد الله: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف الترجمة والنشر، ط. ٣، ١٩٦٦.
١٤- القرطاجني، حازم بن محمد: قصائد ومقطعات أبي الحسن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٧٢.
١٥- الكتاني، علي المنتصر: انبعاث الإسلام في الأندلس، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥.
١٦- المجايدة، سناء: رثاء المكان في الشعر العباسي والأندلسي، دبي، دار الأجواد، ٢٠١٦.
١٧- المخزومي، أبو المطرف أحمد بن عبد الله ابن عميرة: رسائل ابن عميرة الديوانية، تحقيق محمد بن عمر، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٣.
١٨- مونثون، بوي: أناشيد الحاج بوي مونثون، تحقيق عبد الله اجبيلو، السعودية، دار الفيصل الثقافية، ٢٠٠٤.
١٩- الهواري، إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة: ديوان ابن خفاجة، تحقيق عمر فاروق الطباع، بيروت، دار القلم للنشر والطباعة والتوزيع، ١٩٩٤.